على ثلوج (حزرين)

للأستاذ على الطنطاوى

— ٥ —

أقامت ليلى فى دار أسعد شهرين محمولة على الأكف ، مفداة بالأرواح ، قد هيئت لها كل أسباب الرفاهية ، وأحيطت بكل مظاهر الترف ، وسيق لإسعادها كل ما وصلت إليه الحضارة ، وأبدعه العقل ، فلا ترى إلا جميلا ، ولا تشم إلا طيباً ، ولا تسمع إلا ساراً ، ولا تأكل إلا لذيذاً ، ولكنها لم تكن سعيدة ... ولم تر حسن ما هى فيه ، لأنها افتقدت النور الذى ترى به جمال الدنيا حين افتقدت الحبيب

ولم يكن لها ما تشكو منه ، فقد أعطاها أسعد كل شىء ، ولم يطلب منها شيئاً . وكان يسرّها بحضوره ، ويهزّها كرمه ، ويعجبها أدبه ، ولكنها لا تحسّ الفراغ فى نفسها لغيبته ، ولا تجد الخفقان فى قلبها لحضوره ، ولا يحملها حديثه على أجنحة الخيال ، إلى العالم السحور الذى كانت تحملها إليه أحاديث هانى ، على جفوتها وفراغها ...

ولقد أحب أن يتم عليها سعادتها بالبحث عن هانى ، فبعث الرسل ينفضون الأرض ، ويغلّون المدن ، ويبحثون فى الهضاب والشعاب ، فلم يقعوا له على أثر ، وطفقت ليلى تفكر فيه حتى خدر فكرها وكلّ ، وانطوى على هذه (الفكرة) الواحدة ، فلا يعنى بغيرها ، ولا يفرغ لسواها ، وأدركت أن هذا العالم الذى بدا لها أول مرة بهياً فاتناً : عالم الذهب والحرير والزهر والعطر ، جميل ، ولكنه كجمال اللعبة الفنية ، لها القلة الساحرة ، والقامة الفتانة ، ولكنها باردة ليس فيها روح ، وهل روح الحياة إلا الحب ؟

جز ياجبل البقاع ، واسمع أحلى الأغانى ، وشمّ أطيب العطور ، وافتقد الحبيب لا تحس لذلك لذة ، ولا تجد طيباً ...

... ولكن الأيام تبدل كل شىء ، وقد بدل ليلى كرّ الأيام ، فلم يجف الجرح فى قلبها ، ولكن مسّ الحنان قد راضه على السكون ، ولم يذهب الحب من نفسها ، ولكن عرفان الجميل ، قد ألقى عليه غطاء فأخفاه ، ولم تنس حياة القصر وساعات الصخرة ، ولكن غياب هانى قد حملها على الأنس بهذه الحياة الناعمة المرفهة التى نشأت عليها وتعودتها ، هذه هى معيشتها لامعيشة هانى ، الذى ألقته المقادير أمامها ، وقد ولد فى غير بيئتها ، وجبل من غير طينتها

ويا ليتها لم تكن عرفت هانى ، ويا ليت أسعد كان السابق إليها ، إذن لوجدت السعادة كاملة ، لا ينقصها شىء ، ويا ليت الحب ، هذا الطفل الأعمى ، لم يكن رماها بهانى ، بالغلام القذر الذى جىء به من أزقة بيروت ، فتعلقت به ، كما يتعلق المرء بكأس الخمر ، تهرى أمعاءه ، وتشتاقها نفسه ، بل هو القدر ، القدر الذى جعل جسدها منعماً فى هذه الجنة ، وقلبها معذباً فى ذلك (الاصطبل) ، وكتب عليها أن تعيش مع أسعد ، ويكون حبها لهانى

ولم يكن أسعد وأخته ، يدعانها لحظة كيلا ينبثق جرح قلبها ، وكانا يطرفانها أبداً بأجمل الطرف ، وأرق الأحاديث ، ويجددان لها كل ساعة مسرة ، ولكنها كانت كلما خلت بنفسها ، أو لمحت الصخرة من بعيد ، ذكرت ليالى الحب عند الصخرة ، وعادت تفكر فى هانى : أى أرض تحمله ، وأى سماء تظلله ، وهل هو حى لايزال ، أم قد طواه الثرى ؟ ويا ليتها تستيقن موته ، فتستريح إلى اليأس ، وتتعزى بالعجز ...

وكان أسعد يوماً من أيام النقاهة إلى جانبها ، وقد أضجعها على أريكة فى الحديقة ، تضحى بشمس الصباح تظلها بواسق الصنوبر ، وتحف بها فواتن الأزهار ، وقعد على كرسى صغير ، ينظر إليها كما ينظر الوثنى إلى صنمه ، يطل قلبه من عينيه حباً ، ويقفّ لسانه هيبة ، وتنقبض يده إكباراً فلا يمسّه إن مسّه إلا بأطراف الأنامل ، وكان يتأمل شفتيها ، حتى إذا تحركت طالبته شيئاً جاءها به قبل أن يتم اللفظ ، ويلحظ عينيها حتى إذا مالت إلى شىء حمله إليها قبل أن يرتد الطرف ، وطفت عليها عاطفة الشكر وعرفان الجميل ، فأمرت أصابعها على شعره فأحسّ رجفة الكهرباء العلوية ، التى لا تمشى فى سلك ولكن تسير فى الأعصاب ، ولا تضىء البيوت ولكن تثير القلوب ، ولا تحرك

الآلات ولكن تحرك الكون ، الكهرباء التي اسمها الحبّ ، وتجرأ فقال الكلمة التي كان يرددها في نفسه على عدد الدقائق والثواني ولا يجرؤ أن يقولها ، قال لها :

— هل تقبلين بي يا ليلَ زوجاً ؟

وسكت يرقب الكلمة التي تعرّفه مصيره في هذه الدنيا ، إما إلى جنة الحب ، أو إلى نار الهجران ، وسكتت ليلى لحظة ولكنها لم تذكر ماضياً ولم تفكر في مقبل ، وإنما نظرت إلى الحاضر وحده ، واستجابت لندائه ، كما تفعل كل امرأة في الدنيا وقالت :

— نعم .

وتم الزواج !

* * *

ومرت سنوات طويلة ، ناعمة هادئة ، كأنها مياه البحر في خليج جونيه ، واستقر الجرح في قلب ليلى ، حتى ظنته قد قد التأم ، ومنعته عناية أسعد ومحبته أن ينفجر أو يتسع ، واتصلت المودة بينها وبين أسعد ، والمودة إن اتصلت بين الرجل والمرأة لا تلبث أن تصير حباً ، وكاد يجيء الحب ، لولا أن عصف البحر في الخليج فجأة ، وماج واضطرب ، حين دخل الخادم يعلن قدوم هاني .

انفجر الجرح ، وعاش الماضي ، ونظرت ليلى إلى حاضرها الذي كانت تأنس به وتطمئن إليه ، فوجدته يتهدم ويكاد يضمحل حين داهمه هذا الماضي بسيله الدفاع ، فتمسكت بأسعد الذي هو رمز هذا الحاضر ، كما يتمسك الغريق ببقايا الزورق وهتفت به أن يمنعه من الدخول . فأبى أسعد ، وحسب لغروره وجهله بطباع المرأة ، أن الحبّ قد مات ودفن ، لا يدري أنه دفن في القلب ، ودفين القلب يحيا إذا ناداه الماضي ، وأذن له بالدخول ، وقام لاستقباله ، وبقيت ليلى جالسة ، ساكنة الجوارح وقلبها في زلزال ، معرضة عنه وكل شعرة في جسمها تنظر إليه وتحس به ، قد شحب لونها ، واصفر وجهها حتى لم يبق فيه قطرة واحدة من الدم ، ورفعت إليه عينيها أخيراً ، فوجدته قد عاد بأبهى حلة ، وأكمل زينة ، تبدو عليه مظاهر الغنى ، وعلائم الثروة ، وتخاطبت العينان في لحظة ، فألقتا ألف سؤال وسمعتا ألف جواب ، وروتا قصصاً وساقتا أخباراً ، ولم يدر حديثهما أحد . ثم أغضت ، وأخذها مثل الدوار .

وسمعت وهي غيبتها أطرافاً من الحديث ، فعلمت أن هاني قد عاد من أمريكا غنياً ، وأنه اشترى قصر أبيها ، وصار مالكه .

وكان لكل كلمة يقولها ، وحرف ينطق به ، معنى في نفسها ، لا يدركه الزوج ولا ينتبه له ، لقد كان يفهم معاني الكلمات في المعجم وهي تفهم معانيها في القلب المحب ، وفي الماضي المبعوث ، وتحس أن الحديث بينه وبينها ؛ وإن كان الذي يرد عليه زوجها ، ثم غشي عليها فلم تعد تشعر بشيء .

* * *

وذهب هاني إلى القصر ، وقعد على كرسي سيدي الشيخ رحمه الله وراح ينظر حوله : لقد خرج من القصر أجيراً ذليلا ، وعاد إليه سيداً مالكا ، وصار علام تحت يده ، يجرّعه إن شاء المرّ من كأس الانتقام ويجزيه بالسيئة قدمها له عشراً ، وحالفه الحظ ، وسعى إليه المال ، ولكن ما فائدة هذا كله ، وفي نفسه هذا الفراغ الذي لا يملؤه مال ولا قصر ، ولا تسدّه لذة الانتقام ، لقد ذهبت نشوة الظفر وعلم الآن أنه لن يسعده شيء مما على ظهر الأرض إلا هذه المرأة التي اسمها ليلى . وقد صارت ليلى لغيره ... فلن يسعده شيء !

وعرض ماضيه كله ، فتمنى أن تعود أيام الفاقة والعوز ، وأن يعود خادماً ذليلا يحيا بقربها ، لقد كان في الحنان الذي يفيض من عينيها ، والفتون الذي يبدو في صوتها وحديثها ، والعطر الذي يشمه من جسدها الغالي ، ما يغنيه عن المال والجاه فهل يغنيه الجاه والمال اليوم عن حنانها وفتونها ؟ لقد كان يفرّ إلى الصخرة الجامدة ، فينسى القصر وعذابه ، فهل ينسيه القصر ونعيمه اليوم تلك العشايا الحبيبة عند الصخرة ؟

لقد ضرب في الأرض ، وخاض البحار ، وذهب إلى أميركا ليعود بالمال الذي يشتري به قلبها الذي صبا إلى المال ، فماذا ينفعه الآن إن اشترى القصر وخسر القلب ؟ أهذا كدّ ونصب ؟ وهل الجوع والتعب ، وسامر طيف الحب في ليالي الغربة ، وتجرع مرارة الهجر في دار النوى ؟

إن كانت هذه هي الغاية ، فيا ضيعة المسعى ، ويا ضلّة المطاف

(الخاتمة في العدد القادم) علي الطنطاوي